المحور الرابع : الترجمة وحوار الثقافات

تمهيد :

تظل الترجمة نشاطا يكتسي أهمية بالغة ويلقى انتشارا واسعا لأنه يؤدي دورا هاما في مد الجسور بين الثقافات ومختلف الأمم وكذا زيادة الوعي والتفاهم والتوافق بينها. غير أن الاهتمام بأدب اللغات الأخرى يتطلب مراعاة المشاكل الجدية التي تُواجه ترجمة الأدب وتقصّي صعابها، لأنها تفرض على المترجم التعامل مع نص يتضمن عناصر لغوية وثقافية تعكس خيال المؤلف وفكره وحتى بيئته، لا يمكن للمترجم بأي حال من الأحوال أن يتجاهلها حتى لا تؤول الترجمة إلى الفشل.

لقد أصبحت علاقة ترجمة الأدب بحوار الثقافات من أهم انشغالات الفكر المعاصر، وأضحت ترجمة النصوص الأدبية لما تحمل في ثناياها من مكونات ثقافية مميّزة من الحقائق التي تؤكد دورها في مد جسور الحوار بين الثقافات من خلال التركيز على مبدأ الاختلاف وخلفية التعايش والتعارف بين الثقافات. وهي تصبح انطلاقا من هذا المنظور نقيضا للمركزية والعنصرية والهيمنة، داعية إلى تقبُل الاختلاف واحترام الآخر.

من المعلوم أن الثقافات لا تكتسب خصائصها بالانعزال، إذ »لم يشهد التاريخ يوما قيام حضارة أو ثقافة أمة ما بمعزل عن الحضارات أو الثقافات الأخرى، ذلك أن تزاوج الثقافات هو الذي ينمي كل ثقافة ويثريها، فإذا تقوقعت ثقافة على نفسها كان مثلها كمثل الأسرة تقتصر في التصاهر على الأقرباء فحسب فيضعف فيها النسل وتدركها الآفات والعلل فتعقم ويصيبها الشلل والجمود. وتتزاوج ثقافة بلد ما بثقافة أجنبية عنها إما عن طريق الوفادة، أو عن طريق الاجتلاب. والوفادة تحدث بالغزو أو بالتحاور والتبادل التجاري. أما الاجتلاب فيحدث عندما ينمو وعي أمة ما تهيأت لها ظروف اليقظة الفكرية فتطلعت إلى البلاد الأخرى تنقل عنها علومها وفنونها وأسباب نهضتها المختلفة. وإذا تطرقنا إلى الأثر المتبادل في النواحي الثقافية المختلفة وضروب الإنتاج العقلي، نجد أن الدارسين في ميدان العلوم، نظرية أو علمية، قد أتيح لهم في جميع العصور أن يتواصلوا تواصلا فعليا وأتاحوا للمؤثرات العلمية ورسالة العلوم بأن تخترق الحدود والأقطار دون نشأة صعوبة جدية تعوق ترجمة المؤلفات العلمية ونقلها من لغة إلى أخرى. أما نقل الآثار الأدبية فتكتنفها صعوبات كثيرة في الترجمة من لسان إلى لسان. وهكذا نجد تعاونا في المجال العلمي في جميع أنحاء العالم، فالعلم لا وطن له، أما الثقافة فلها وطن. «(إ. ز خورشيد، المرجع السابق، ص 26).

و »يتبوأ الأدب باعتباره شكلا من أشكال الفنون مكانة بارزة في المشهد الثقافي، إلا أن التعرف على الآثار الأدبية خاصة روائع الأدب التي أدركت العالمية، فهمها أو تذوقها لا يصبح ممكنا إلا إذا مرت بعملية الترجمة. و لو سلّمنا جدلا بأن الترجمة بعيدة عن أن تكون الوسيلة الناجعة لنقل الآثار الأدبية نقلا سليما، فإنها بالرغم من ذلك تكاد أن تكون الوسيلة الوحيدة لتوصيل الآثار إلى أذهان الناس في مختلف أنحاء العالم وتعرّفهم بها. فلا يمكن أن يختلف اثنان في القول بأن الترجمة هي بوابة مفتوحة على الآخر تُمكِنه من التعرف على مختلف الشعوب ومميزاتهم، فعدّت أحسن سبيل للاتصال بتلك الثقافات. فكل الصور والأفكار الثابتة التي رسمت عن الشعوب نجدها قد توافدت إلينا بفعل ترجمة آثارها الأدبية، أما وسائل الإعلام فتأتي بمثابة عناصر مكملة لتلك النظرة دون أن ننسى الدور الذي تلعبه الترجمة في وهب تلك الآثار حياة جديدة«. (G. Mounin,1976, p. 154)

في ضوء ما سبق، أصبح مصطلح " قابلية الترجمة " المفهوم الرئيسي لتلاقي الثقافات وتفاعلها والتبادل بينها. وعدّت الترجمة الأدبية وسيلة لمد جسور الحوار بين الثّقافات، وآلية للانفتاح على قضايا الهوية والعلاقة مع الآخر، وأداة يتحقّق بفضلها التّواصل الثّقافي والإبداعي والأدبي، وترتسم بموجبها صور الشّعوب، الشيء الذي من شأنه أن يساهم في إرساء مبدأ الاحترام و إحلال السلام بينها. يقول ستانتشيف **Stancev** :

« The literature of a people reflects their way of life, their vision of the world and their cultural values. This highlights, as just pointed out, the importance and nobility of the translator's task of bringing different peoples together via a mutual knowledge and understanding of their literatures, thus opening new paths towards mutual respect and peace» (Mohamed Alhussin & Hesham Hassan, 2009/2010, p. 37)

ومفاد قوله » أن أدب الشعوب يعكس طريقتهم في الحياة ونظرتهم إلى العالم وقيمهم الثقافية. ومن شأن ذلك أن يبرز أهمية ونبل مهمة المترجم التي ترمي إلى فتح سبل للتقارب بين مختلف الشعوب والتعارف والتبادل بينها وفهم آدابها، سبل جديدة تؤدي إلى الاحترام المتبادل والسلام. « (ترجمتنا)

كثيرا ما » اقترن تعريف الترجمة بالنقل بين اللغات، إلا أن الأمر لا يقتصر على النقل بل تجاوزه إلى التواصل بين مختلف الثقافات والتعارف ليس بمقتضى وجهة نظر الثقافة التي ننتمي إليها، بل بخصائص الثقافة الأخرى. كما تهدف الترجمة إلى الانفتاح الذي تطفو على إثره المميزات الخاصة بكل ثقافة كي تسمح لنا بمعاينة اختلافها، وبهذا الشكل يتسنّى لنا التمييز بينها بفضل نسبة غرابة بعضها عن بعض. لكن كثيرا ما تنكرت بعض الثقافات لثقافة الآخر لسبب أو لآخر. ومنه، وجب النظر في الهدف من العلاقة بين الثقافات وفقا للأهداف المرجُوة منها حتى يرتسم مسار

الترجمة: إما أن تتمّ عملية ترجمة الثقافة بمقتضى تعابيرها الخاصة إلى ثقافة أخرى، أو أنها تحاول أن تُعرف بنفسها في الثقافة الأخرى بمقتضى الخصائص اللغوية للثقافة المستقبلة. فإذا انطبق الأمر على الحالة الثانية، نكون قد رسمنا حدودا للترجمة الأدبية إذا اعتبرنا أنه لا يمكن فهم مميزات الثقافات الأخرى إلا إذا كُيّفت مع ما يتماشى ومرجعيات الثقافة المستقبلة، فتخضع لعملية التغيير والتشويه بغية ملاءمتها. في حين، تضطلع الترجمة بمهمة الحوار بين الثقافات وتبادل الأفكار ونشر المعرفة، فهناك ترجمات تمحي كل اختلاف ثقافي وأخرى تُضخم فيه، وهناك ترجمات تنجح في الحفاظ على هذا الاختلاف وتحترمه، فيُصبح بهذا الشكل من الضروري التفريق بين أنماط الترجمات قبل استعمالها في المقارنة.« (Mounin, 1963, p. 155))

والحقيقة أن الثقافات تكتسب خصائصها باحتكاك بعضها ببعض في مساحة بينية حتى وإن كانت لا تعكس بدقة مميزات كل منها، لكنها تسمح على الأقل لكل واحدة أن تعكس نفسها في الثقافة الأخرى، ولا يتجسد ذلك فعليا إلا بتقوية الوعي بضرورة تلاقي الثقافات أين ترى كل ثقافة نفسها تنعكس في مرآة ثقافة أخرى تلتقي بها. وفي هذا السبيل، تنفتح الأبواب لمفهوم " الغيرية" الذي يعد مفهوما جوهريا في المبحث الثقافي، ويبقى عبارة عن فرضية مجردة لا تصبح ملموسة إلا إذا تجسدت على أرض الواقع. وتتحدد مختلف المظاهر التي تأخذها " الغيرية " في الترجمة وفقا للأسلوب الترجمي الذي نختاره، فهي تأخذ أشكالا متميزة لا يمكن إدراكها إلى حين تمظهرها فعليا في الممارسة، فترجمة "الآخر" تعني أن تأخذ "الغيرية" حقها دون إخضاعها للفرضيات المسبقة.) (Wolfgang Iser, 1994, p. 13)

هكذا ظلت رهانات التثاقف في قلب التفكير الذي يصاحب الممارسات الترجمية التي يفرضها كل انتقال لغوي بين نصوص تم إنتاجها ضمن سياقين ثقافيين مختلفين، ويطرح إشكالية ثقافية لارتباط هذه الممارسة بعلاقة بعض الآداب ببعضها الآخر وبالأيديولوجية أي بالسياسة التي لا تقتصر على الأمن القومي أو الاقتصادي فحسب، بل بسياسة ثقافية وسياسة في الأدب والترجمة. ويأخذنا الحديث في سياق سياسة الترجمة، إلى الحديث عن تلك العوامل التي تتحكم في اختيار أنواع النصوص، ليتم استيرادها عبر عملية الترجمة إلى لغة/ثقافة معينة في زمن معين، ويمكننا الإقرار بوجود هذه السياسة بقدر ما كان الاختيار موجها ومدروسا. (Toury, 2000, p. 202) حيث تتجسد هذه الممارسات عبر استراتيجيات تتباين بتباين المنهجية أو النظرية التي تمليها الرهانات على المترجم ويظهر إثرها موقفه من الترجمة.